• دریافت ۹۱/۰۹/۱
• تأیید ۹۱/۱۲/۲

التحليل السيميائی لرواية«رحلة ابن فَطَوَّمَة» العناوين و الشخصيات

الدكتور فرامرزميرزايی*
طيبه اميريان**

الملخّص

إنّ التحليل السيميائی يساعد القارئ للوصول إلى الدلالات المتبطنة فی النص، خاصة إذا كان النصّ ثريّاً و مشحوناً بالدّلالات الرمزية و هذا ما نجده فی رواية « رحلة ابن فَطَوَّمَة» لكاتبها الشهير نجيب محفوظ، حيث عنوانها يوحی بأنّ الكاتب استمدّ مادّته من التراث فكراً وشكلاً، فالفكر فيها مقتبس من التراث الصوفی فی السفر لكشف الحقيقة و الشكل فيها متأثّر من أدب الرحلة من التراث الأدبی. والمحلّل السيميائی للرواية يركّز اهتمامه على العناوين و أسماء الشخصيات و الأمكنة، لأنّها هی تلك المنطقة من الرواية أكثر إيحاء و أشحن دلالة على المعانی الرمزية. تكتظّ رواية «رحلة ابن فطوّمة» بالعديد من العناوين ذات الدلالات السيميائية المتباينة. بدءً من العنوان الأصلی كمفتاح يفكُّ رموز الرواية و يكتشف دلالاتها، و مروراً بالعناوين الفرعية كـ«الوطن، دار المشرق، دار الحيرة، دار الحلبة، دار الأمان، دار الغروب و البداية» التی لكلّ واحد منها دلالات سياسية و فكرية و اجتماعية؛ و منتهيا بأسماء الشخصيات التی تدلُّ كلُّ واحدة منها على رموز فكرية من الصوفية و ظروفها ، مقاماتها و خصائصها منسجمة مع المنظومة الفكرية للكاتب فی صِياغة رواية مكتملة البناء و الفن.

الكلمات الرئيسة:
السيميائية، نجيب محفوظ، رحلة ابن فطوّمة.

* الأستاذ فی اللغة العربية و آدابها بجامعة بوعلی سينا بهمذان mirzaeifaramarz@yahoo.com
** طالبة الدكتوراه فی اللغة العربية و آدابها بجامعة بوعلی سينا بهمذان

- إشكالية البحث

السيميالوجيا أو السيميائية[١] « تدرس كلَّ شيء يدُلُّ على شيء آخر أو هی تدرسُ العلاماتِ أو الإشاراتِ، و هی لعبةُ التفكيكِ وَ التركيبِ، و تحديدُ البنياتِ العميقةِ الثاويةِ وراءَ البنياتِ السطحيةِ المتمظهرةِ فونولوجياً و دلالياً»(برهومه،٢٠٠٧: ٣٩). ذلک لأنّ اللغة نظامٌ من الدلائل و بالتالی إنَّ كُلَّ كلمة، فی علم السيمياء، تُعَدُّ دليلاً لِسانياً. و الباحثون فی مجال السيميائيات اهتموا، من بين النصوص الأدبية، بالنص السردی[٢] (جيرو،١٩٨٨: ٢٣).

فالتحليل السيميائی يقومُ على تناول المعنی النصی من خلال زاويتين: السطحية التی يتمُّ فيها الاعتمادُ على المكوّن السردی فی تنظيم تتابع حالاتِ الشخصيات و تحولاتها و المكوّن الخطابی الذی يتحكم فی تسلسل الصور و إثارة المعنی؛ و الزاوية العميقة التی ترصدُ شبكة العلاقات فی تنظيم قيم المعنی حسب العلاقات التی تقيمها، و فی تبين نظام العمليات التی تنظم الانتقال من قيمة إلى أُخرى (كورتيس،٢٠٠٧م: ١٢). ذلک لأنَّ النص السردی هو اللون الأدبی الذی يرتبط بالحياة ارتباطاً وثيقاً و يعطی الكاتب قدرةً وافيةً لاستيعاب الحياة بكل ما فيها من أفكار و أحداثٍ، فی بناء فنی رائع. لعلَّ هذا ما جعله أكثر الأنواع الأدبية انتشاراً بين الناس و أكثرها اهتماماً بين النقاد فی عصرنا الراهن.

إن روايات نجيب محفوظ مادة ثرية للتحليل السيميايی لأنّها مزيجٌ من الفلسفة، و الدين، و الاجتماع، و السياسة، و النفسية و الصوفية ممّا جعل رواياته، خاصةً أعمالَه الأخيرةَ، قادرةً على « أن تثيرَ فِی نفس القارىء جملةً من الذكريات، و تستدعی كثيراً من الصور، كما أنّه يثری النسيج الروائی، و يهب الروايات القدرةَ على الإيحاء بمعانٍ عدة» (كيربتيشنكو، ١٩٩٣: ١٩٨) و منها رواية «رحلة ابن فطوّمة»، الزاخرة بالدلالات الفكرية و الرمزية و المستلهمة من التراث السردی العربی العريق شكلاً و معناً. اتَّخذ *محفوظ* شكل الرواية الفنی من « أدب الرحلة» أحد أشكال القصص العربی الإسلامی، لأنه «مصدر مفيد للمعرفة بطبائع البلدان، وَ قيم الشعوب وَ تقاليدها»(فهيم،١٩٨٩:

١٥٠). ثمّ أقام علیه بناءه الروایی الدّال علی بنیة فکریة و رؤیة حضاریة لیکون نموذجاً بنائیاً لمفهوم الحقیقة.

هذه الدراسة تعتبر محاولة لکشف جمالیة سیمیائیة للعناوین و أسماء الشخصیات و ذلک للإجابة علی کیفیة دلالة العنوان الأصلی«رحلة إبن فطوّمة» و العناوین الفرعیة و أسماء الشخصیات فی الروایة علی مضمونها السردی دلالة جمالیة، منطلقاً من فرضیتنا أنّ العناوین فی الروایة تحمل دلالات و إشارات، تشرح أفکار محفوظ حول الحقیقة و الأنظم السیاسیة المختلفة فی الروایة تماماً و أنّ الروایة تُعدُّ من أجناس الکتابة الصوفیة، حیثُ الشخصیات فی الروایة ذات دلالاتٍ صوفیة و جمالیة. هذه الدلالات تکمن فی تناسقها تماماً مع المضمون الروایی الذی یدور حوًل البحث عن الحقیقة والإسلام الحقیقی و الحیرة الناجمة عن هذا البحث.

٢- أهمیة البحث و الهدف منه

للمنهج السیمیایی التحلیلی دورٌ هامٌ فی استکشاف بواطن النّص الروایی و إبراز ما فیه من دلالات جمالیة للقارئ. حیث القارىء أو المتلقّی یمکنه فهمَ النّص الروائی فهماً دقیقاً. إنّ هذا البحث یهدف إلی تبیین سیمیائیة العناوین و الشخصیات فی روایة «رحلة إبن فطوّمة» و الکشف عن رمزیة الروایة فی إطار التحلیل السیمیائی.

٣- منهج البحث

اعتمدت الدراسة علی منهجیة التحلیل السیمیائی مسباراً یکشف عن سیمیائیة العناوین و الشخصیات الصوفیة فی الروایة، من خلال فحص مکوّنات العنوان و أنماط الشخصیات فیها. فهیکلیة الدراسة قائمة علی مقومات هذا المنهج مستفیدة من التحلیل النصّی المعتمد علی تحلیل المضمون لإحصاء العناوین و أسماء الشخصیات و التحلیل الکیفی لها سعیا لکشف الدلالة الفنیة و السیمیائیة للعناوین و الشخصیات فی النّص الروائی.

۴- الدراسات السابقة

ليس فی عصرنا الحديث أديب شغل العقل الأدبی العربی مثلما شغله نجيب محفوظ و ليس هناک ناقد لم يكتب عنه (مرينی، ۲۰۰۶: ۲۸). فالبحوث العلمية حول أدبه لكثيرة جدّاً، نذكر منها ما يهمّنا كالبحث الذی أقبلت عليه فاطمه محمود عثمان، من جامعة المنيا، فی أطروحتها المعنونة بـ«توظيف الصوفية فی الرواية المصرية: نجيب محفوظ و جمال الغيطانی» و كانت حكاية «رحلة إبن فطوّمة» من مباحثها. و ثمّة دراسة أخری لسناء كامل شعلان«الرحلة الأسطورية فی رواية «رحلة إبن فطوّمة» لنجيب محفوظ»، فتقوم الدراسة على تحليل الرواية علی حدثٍ أُسطوری، و هو الرحلة و الطوافُ فی عوالم أُسطورية كالرحلات الأُسطورية التی قام بها أبطال أُسطوريون كإيزيس لِأسباب متباينة(شعلان،۲۰۰۶: ۳). وَ دراسة أُخری لإيهاب الملاح « استلهام التراث السردیً فی رواية «رحلة إبن فطوّمة»»، يعتقد الكاتب فی دراسته أنَّ نجيب محفوظ قد قرأ رحلة إبن بطوطة جيداً و تمثّلها لتكون المرجع أو الإطار لروايته، كخطوة طموح علی طريق تأصيل شكل عربی للرواية (الملاح،۲۰۱۱، ۵).

و أما الباحثون الايرانيون فقد تعددت دراساتهم التی تناولت نجيب محفوظ و رواياته: منها «قراءة فی المدرسة الأدبية لثلاثية نجيب محفوظ» لكاتبهما ميرزايی و اكبری مفاخر(۱۳۸۸: ۱۱۳)، حيث عالجا المشاكل الإجتماعية و الفكرية و السياسية خاصة الثنائيات التی عان منها المجتمع المصری، كالتقابل الثقافی بين الشرق و الغرب، فی ضوء المدرسة الواقعية و أخری لهما (ميرزايی و اكبری،۱۳۸۷: ۱۶۲).المعنونة بـ « الأزمة الفكرية و الروحية للبطل فی رواية الثلاثية لنجيب محفوظ» حول بطل الروايةِ و أزماتها خاصة معاناته من مجموعة متنوعة من الإزدواجية، مثل الإنقسامَ بين العلم و الدين، و التی لا ترزخ لحلّ. و مقالة « مظاهر الواقعية التفاؤلية فی أدب نجيب محفوظ و تداعياته»، لعدنان طهماسبی و جواد اصغری(۱۳۸۵: ۳۵) فأشارا إلی الميزات

الرئيسة للواقعية التفاؤلية فی آثارمحفوظ القصصية، و مقالة «الرمزيـة فـی أدب نجيب محفوظ» لجواد أصغری(۱۴۲۷: ۱۵)، فالباحث يعتقد أنَّ محفـوظ رغـم نزعته الواقعية، فله ميول فنّية للرمز فی بعض رواياته كأولاد حارتنا و اللـص و الكلاب. و هذه الرمزية تعطی رواياته الواقعية قشوراً متعددةً يتمتع منها شـرائح مختلفة من الأفراد. و ثمة دراسة أخری« التناص القرآنی فـی روايـة اللـص و الكلاب لنجيب محفوظ»، لخليل بروينی و زملاءه (۱۴۳۲: ۴۳) فأوضحوا فيهـا أنَّ محفوظ استخدم القـرآن الكـريم فـی روايتـه اسـتخداماً ايجابيـاً و أخـری لهم(بروينی و زملاءه،۱۳۹۰: ۱۱۸) فـی نفـس السـياق المعنونـة بـــ« جدليـة البحث عن الله فی رواية الطريق لنجيب محفوظ» و اعتقدوا أنَّ محفوظ تطـرَّق فی رواية «الطريق» إلی البحث عن الله و إلی التساؤلات العديدة حـول مصـير الإنسان الضعيف، و أحداث الرواية تأتی من منطلق رمزی و إطـار فلسـفی. و دراسة أخری لبروينی و عموری(۱۴۳۱: ۱۶۰) بعنوان: « التناص القرآنـی فـی رواية حكايات حارتنا لنجيب محفوظ» و رأی الكاتبان أنَّ الكاتب استطاع فی التناص القرآنی بنوعيه الداخلی و الخارجی فـی هـذه الروايـة أن يبـين بعـض أفكاره السياسية و الإعتقادية. و مقالـة« صـدی المـرأه فـی الأعمـال النقديـه الواقعيه لنجيب محفوظ»، لروشنفكر و عبـدی(۱۳۸۳: ۶۲). فالكاتبـان تنـاولا دور المرأة فی الأعمال الأدبية الواقعية لمحفوظ، من ناحية الاقتصادية و أخيرا دراسة« اللص و الكلاب: دراسة فـی الشـكل و المضـمون»، لعلـی گنجيـان و بادرستانی(۱۳۸۸: ۲۱)، فحاولا فكة الرمز من رواية اللص و الكلاب فی نقدها لسلوک الحكام المصريين بصورة غير مباشرة. هذه هـی أهـم الدراسـات التـی تعرضت لبعض أعمال نجيـب محفـوظ و التـی تنالـت فـی معضـمها روايـات محفوظ من منظور المناهج الجديدة للنقد الأدبی كالتناص و المـدارس الأدبيـة المنوّعة مثل الواقعية و الرمزية. و لـم نجـد مـايغنی عـن شـئ فـی المجـلات المحكمة داخليا حول رواية ابن فطوّمة، و هـی روايـة قيمـة فنيـا و مضـمونا، فتناولنا دراسة دلالة العناوين و الشخصـيات فيهـا تنـاولاً سـيميائياً راجيـا أنّ الدراسة قد أضافت بحثا جديدا من نوعها فی هذا المضمار.

۵- المضمون السردی للرواية

رواية « رحلة ابن فطوّمة » تحتوی علی ذکريات شخصية تدعی «قنديل إبن فطوّمة الأزهری» المشتاقة إلی سفر« بحثا عن الحقيقة» و « الإسلام الحقيقی» المفقودين فی بلاده نحو«دارالجبل» ، ليرجع « إلی وطنه المريض بالدواء الشافی» (محفوظ،۲۰۰۷: ۶۴۷). يشجّعه علی ذلک أستاذه الذی فشل فی إکمال الرحلة قبله بعدة سنوات. و ذکرياته هذه تشمل علی وصف رحلة لسبعة دور و ما حدث له فيها من مشاکل و مصاعب کثيرة ، بدءً من دار الوطن، ثم دار المشرق، فدار الحيرة، و دار الحلبة، و دار الأمان، و دار الغروب، و البداية علی الترتيب لِيصلَ إلی الحقيقة و العدالة، المتواجدتين فی آخر دار لرحلته، أی: دار الجبل التی تعدّ مکانا متخيلا. خصائص هذه الأوطان مختلفة فی الثقافة و الديانة و الحکومة. ففی أثناء رحلته يلتقی بشخصيات مختلفة فی حوار فکری ناجم عن اختلاف فی الرؤية دون الوصول إلی الحسم فی کشف الحقيقة. و أخيرا يواصل رحلته وحيدا ، کاتبا آخر سطور رحلته: « تخفّفت بعد ذلک من وساوسی و تأهّبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تقهر». (محفوظ: ۶۸۹) ثم يضيف علی ذلک الروای قوله: « بهذه الکلمات ختم مخطوط رحلة قنديل محمد العنابی الشهير بابن فطوّمة و لم يرد فی أی کتاب من کتب التاريخ ذکر لصاحب الرحلة بعد ذلک» .(نفسه:۶۸۹) فالرواية تبقی مفتوحاً دون نهاية حتمية، کان الروای أو بعبارة أخری کان الکاتب عهد النتيجة إلی القارئ ليستنبطه من النص الروايی و ذلک بأسئلة مثيرة للانتباه:« هل واصل رحلته أو هلک فی الطريق؟ هل دخل دار الجبل و أیّ حظّ صادفه فيها ؟ و هل أقام بها لآخر عمره أو عاد إلی وطنه کما نوی ؟ و هل يعثر ذات يوم علی مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟ علم ذلک عند عالم الغيب و الشهادة (نفسه: ۶۸۹).

۶ – تحليل العناوين السيمايی للرواية

يری علماء السيمياء أنَّه لا شَیء خارج النّصّ، فالعنوان و النص و الإخراج

الطباعی و الإشارات و الصور أجزاء لا تَتَجَزأ مِن الخطاب، فكُلُّها إشاراتٌ دالّـة يكمّلُ بعضها بعضاً (موسی،۲۰۰۰: ۷۲). ثمّ إنّهم عنوا بـالعنوان فـی النصـوص الأدبيه بالغ العناية، إذ يعدُّ عتبة النص للولوجِ إلى خبايـاه و كشـفِ أسـراره. و العنوان نص مضغوط و صورةٌ كليةٌ و موجزةٌ يحدد هويةَ النصِّ و إنّـه « نظـام سـيميائی ذو أبعـاد دلاليـة و رمزيـة و أيقونيـة...، و هـو كـالنّص، أفق»(طقوس،۲۰۰۱: ۶). و هو الّذی يحدد موضوع النصِ و يُعدّ « نصًّا موازيًا له و عتبة تحيط بالنص». (برهومه، ۲۰۰۷: ۴۵)، و يشكل أوّل حلقة اتّصال نوعی و خاصّ بين المؤلف و المتلقی. فاختيار العنوان ليس أمراً يسيراً و عبثاً، بل هو عمليةٌ صعبةٌ. فی الحقيقة أنَّ الكاتب يؤسّس علاقةً ضمنيةً بين العنوان و النصِّ.

۱-۶- العنوان الاصلی «رحلة ابن فطومة»

المضمون الأساسی لروایة رحلة إبن فطوّمة، يدور حـول « الـروح الحـائرة للبشر طوالَ حياته».(محفوظ،۲۰۰۷: ۶۴۶) الـروح التـی تبحـث دائمـا عـن كمالها للوصول إلى الحقيقة، و العدالة، و الحرية فلابدَّ له من قطع مسـافة بعيـدة واحدة تلو الأخرى. ولأجل ذا اختار نجيب محفوظ عنوان «رحلة ابن فطوّمة» ليدلّ على ما تحتويه الروایة من عناء السفر فهو عنوان فنـی ذو دلالات كثيـرةٍ يفی بما يريده الكاتب موحياً بما يستنجه القارئ.

۱-۱-۶- الدلالة المعجمية للعنوان

عنوان «رحلة ابن فطومة» تركيب اضافی ذو مكوّنين: مكوّن حَدَثی، و هـو لفظ «رحلة» ، و مكوّنٌ فاعلی(يقوم بالعمل) و هو اسم «ابـن فطوّمـة». فلفظـة «رحلة» ضدُّ السكون، تدلّ على حركة من مكان إلى آخر للتنـزّه أو مشـاهدة الأمصار المختلفة و تسجيلها مع تجارب صاحب الرحلة لتؤدّی فی النهاية إلـی تحوّل الإنسان لكسبه التجاربَ الكثيرة منها. و أما مكّون ابن فطوّمـة الفـاعلی، فيدلّ على رحّالة تستهويه مشـاهدة الأمكنـة، و الثقافـات المتعـددة، و المـدن المستغربة، للكشف عـن أسـرارها و الحصـول علـى بغيتـه و إيصـال تجربتـه للأخرين الذين لم تتكمنهم الرحلة.

إن اضافة المكوّن الحدثی(رحلة) إلی المكون الفاعلی(ابن فطومة) تكسب المضاف معرفة لتعطيه دلالة أخری خفية و هی أنّ الرحلةَ ليست عاديةً و امتزاج المكوّنين الحدثی و الفاعلی يظهر لنا أهمية هذا السفر و مكانته، و نظراً للمعنی المعجمی لكلمة (فطوّمة) المأخوذة من مادة «فَطَمَ» من«فَطَمَ العودُ فطماً: قطعه. وَ فَطَمَ الصبی يفطمه فطماً، فهو فطيمٌ: فَصَلَه عن الرضاعِ ..، وَ أصلُ الفطمِ القطعُ»(ابن منظور،۱۹۸۸، ماده فَطَمَ)، يبدو أن الرحلة هی لرحّالة كثير السفر و القطع من مكان إلی آخر كما هی الحال بالنسبة لابن فطوّمة الشخصية الروائية الدائمة السفر و التی تنفكُّ من الأواصر و التعلّقات الدنيوية فی كلّ موطن و مرحلة لمواصلة رحلتها.

يتبين من عنوان الرواية أن كاتبها يعامل كلمة «الرحلة» معاملة تقنية ليخرجها من دلالته المحدودة لمفهوم الطريق إلی دلالة أكثر شمولية ليعادل هذا الطريق معادلا موضوعيا للتجربة الإنسانية و هی «رحلة البحث عن كشف الحقيقة»(هليل، ۲۰۰۶: ۱۳۹). و إنّ أهمية الرحيل، ترتبط، فِی إشارة سيميائية، بالمعرفة، التی تتطلب مسافات طويلة. يحكی نجيب محفوظ قصةَ إبن فطوّمة كشخصية تبحث عن روح الإسلام الحقيقی و ذلک بعد المحاورات التی تقع بينه و بين أستاذه الشيخ مغاغة الجبيلی، المعلم الذی أثار شوقه للرحلة، فنما فی داخله أمل كبير لزيارة دار الجبل للكشف عن سرها للعالم، فبدأ أسفاره فی أوطان «خيالی، لا واقعی فی العالم» لا للسياحة و التنزة، بل للوصول إلی ضالّتِه، قائلا: « وَ قال لی صوتٌ باطنی بأننی سأكون أوّلَ ابن لآدم يتاح له أن يطوف بدار الجبل ثمَّ يعلنُ سرَّها للعالمين »(محفوظ،۲۰۰۷: ۶۴۹). فضالّته المنشودة التی لايمكن الحصول عليه إلا فی دار الجبل، هی الإسلام الشامل علی الحرية الحقيقية.

و دلالة أخری معجمية من كلمة ابن فطوّمة تشير إلی أنّ هذه الرحلةَ لا تنحصر فی إنسان واحد، لأن الفطوّمة صفة عامة لكل إنسان يولد من أمّ و ينفطم منها فی يوم من الأيام، هذا ما يُفهمنا أنّ تعميمَ كشفِ الحقيقةِ مقصودُ

المؤلف فی الرواية لكلّ إنسان فی هذا العالم. فالـذين يبحثـون عـن الحقيقـة و الكمال لابدّ أن يتجاوزوا العقبات الشاقّة و الموانع النفسية كما فعل إبن فطوّمـة فی رحلته هذه. فالسفر كامن فی نفس كلّ إنسان طالـب الحقيقـة لأن الرحلـة رحلة نفسيةٌ و باطنية يقوم بها كل من يخالجه الكشف الشهودی للحقيقة.

۲-۱-۶- الدلالة التراثية

إنّ الرحلات تشكّل أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان.(فهيم، ۱۹۸۹: ۱۷) و كـان العرب قد عرف الترحال قبل الإسلام حسب ما ورد فی القرآن من إشـارة إلـی رحلتی الشتاء و الصيف. (القرآن، قـريش:۲) و بعـد الإسـلام، دفعـت أسـباب مختلفة، كان من أهمها الحج، بالمسلمين إلی رحلة و الانتقال حتی يمكننا القول بأنّ « رحلة الحج اكتسبت صفة تراثية شعبية».(فهـيم،۱۹۸۹: ۸۰) ثـم اقترنـت الحاجة السياسية للدولة فی التعرف علی المسالک و الطرق بالجاجة الدينية لأداء فريضة الحج فنشأ أدب الرحلة فی التراث الأدبی علی رحابهما. (ضيف،۱۹۸۷: ۹) كشكل نثری قادر علی استيعاب الموضوعات المتعددة (جمعه،۱۹۹۱: ۱۱۲). ظهرهذا التراث فی الأدب العربی الحديث عند أمثال طهطاوی و الشدياق و أمين الريحانی و طه حسين و توفيق الحكيم... و أخيرا نجيب محفوظ.

يحيل عنوان رواية « رحلة ابن فطوّمة» لنجيب محفوظ إلی أشـهر عنـاوين أدب الرحلة فی التراث العربی، و هی «رحلة ابن بطوطة»، أو «تحفة النظار فی غرائب الأمصار و عجائب الآثار» التی كتبها أعظم رحّالـة عرفـه العـرب فـی تاريخهم الوسيط و هو أبو عبدالله محمد بـن عبـدالله بـن محمـد بـن إبـراهيم اللواتی، الشهير بابن بطوطة الطنجی و « لم يترک ابن بطوطة بلدا نـزل بهـا إلاّ تحدث عن أهلها و سلطانها و علمائها و قضاتها و بذلک رحلته معرضـا كبيـرا لحياة الأمم و الأقاليم التی نزل بهـا مـن الـوجهتين السياسـية و الاجتماعيـة و كانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الوقوف عند رجال الدين و أمـور الاسـلام و زوايا المتصوفة».(ضيف،۱۹۸۷: ۹۸) و هذا ما نراه فی رحلة ابن فطومة حيـث أنه لم يترک دارا نزل بها إلاّ تحدث بإسهاب عن أهلهـا و طقوسـها الدينيـة و

زعماءها الروحيين و حكّامها السياسيين و كيفية معاملتهم مع أهل تلك الدار.

رغم هذا التشابه إنّ تجربة إبن فطوّمة تختلف عن التجربه التی كَسبَها إبن بطوطة طوالَ أسفاره لأنّ رحلة إبن فطومة « هی رحلة زمانية رأسية لا أفقية، تستعرض عبر تاريخ الإنسانية أهم محطات المذاهب السياسية و الاقتصادية، بحثاً عن النظام الأمثل القادر على إقامة مجتمع إنسانی سعيد» (شوقی،۲۰۰۰: ۱۹۸). تشير هذه الدلالة التراثية إلى أنّ محاكاة النص اللاحق للنص السابق، محاكاة واعية، لاستخدامه استخداما عصريا لبيان حالة الإنسان المأزومة و عرض طريق لحلّ وطن متخلف يحتاج، أكثر ما يحتاج، إلى دواء يشفيه من مرضه الذی لايزال يستعصی الحل. فهدف « ابن بطوطة» من رحلته كان أداء مناسک الحج، أما هدف «ابن فطومة» فهو الوصول إلى دار الجبل لتحصيل المعرفة النافعة، لإنقاذ وطنه المتخلف من أمراضه المزمنة سعياً إلى الخلاص الجماعی، ففی قوله هذا إشارة إلى ذلک: « من أجل ذلک قمت برحلتی يا شيخ حمادة، أردت أن أری وطنی من بعيد، و أن أراه على ضوء بقية الديار، لعلی أستطيع أن أقول له كلمة نافعة»(محفوظ،۲۰۰۷: ۶۴۷). و لأجل ذا كان ابن فطوّمة يقوم فی كل دار نزل بها، بمقارنة بين ما يجری فيها و بين ما يجری فی وطنه المتخلف و بين عادات أهلها و عادات أهل وطنه المريض و المقارنة تبدی تحسره وحزنه العمقين فی كثير من الأحيان.

۲-۶- العناوين الفرعية

جاءت رحلة إبن فطومة مؤلفة من بداية يمثلها «الوطن» و نهاية تمثلها«البداية» أو « دار الجبل» و خمسه بلدان بينهما، هی دار المشرق، دار الحيرة، دار الحلبة، دار الأمان، دار الغروب. أسماء هذه الأمكنة الخيالية تعطی دلالات كثيرة، حيث الانتقال من دار إلى أُخری يزود القارئ معرفة أكثر للوصول إلى الحقيقة كما هو الحال بالنسبة لابن فطوّمة الذی يتحمل كلّ المصائب فی سبيل الوصول إلى دار الجبل، المدينة الفاضلة، ذات نظام أحسن للعدالة، و الحكم، الحرية و الإسلام الحقيقی. فلهذه العناوين و الأسماء التی

اختارها نجيب محفوظ، إشارات تَدلُّ بنظامها و أحوالها المختلفة على الخصائص الدينية و الملامح الأساسية للنظم السياسية فی العالم.

۱-۲-۶- الوطن

الوطن أو «دار الإسلام» هو الموطن الأوّل لِرحلة إبن فطوّمة، فهی مليئة بالجهل، و الفقر، و الظلم و بعيد عن الإسلام الحقيقی. دلالة الوطن أو دار الإسلام فی هذه الرواية تبنی على مفارقة ساخرة تتضّح من خلال الأوصاف التی يطلقها ابن فطوّمة. تدلّ لفظة الوطن فی دلالتها المعجمی على الاستقرار و الطمأنينة و «الإسلام » تدلّ على التسليم الدينی و الرضا، أما فی الرواية فتدلاّن على نقيضهما و هما: الخيانة و الزيف، أو الاظطراب و الابتعاد عن الله: «إذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدحم الطرقات بالفقراء و الجهلاء؟! فأجابنی بأسی:- الإسلام اليوم قابع فی الجوامع لا يتعدّاها إلى الخارج! – إذن إبليس هو الذی يهيمن علينا لا الوحی»(محفوظ، ۶۴۷). و حين يتعرض إبن فطوّمة لمشاكل عديدة منها: خيانة الدين لأنَّ الإسلام قابع فی الجوامع، و خيانة الأمّ لأنّها تزوّجت من أستاذه، و خيانة الحبيبته لأنها تزوّجت من حاجب الوالی، يصرخ محتجّا:« خاننی الدين، خانتنی حليمة، و بدا كلّ شیء كالحاً... و بدت له الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل و لا تعاشر »(نفسه، ۶۴۷). لهذه المفارقة الساخرة بين مدلولی الوطن و الإسلام و ما يجری فی المجتمع الاسلامی الزائف و الراكن أمام سلطة المال و الخداع، إشارة سيميائية هامة إلى أنه ليس للإسلام بهذه الأمور من صلة وإنما ظاهرةالإسلام أصبحت ذريعة للحكام و للناس لتستر أعمالهم و تبريرها و هذا ممّا دفعه إلى الرحلة ليجد دواؤه الشافی لدائه العضال و ليجد الإسلام الحقيقی.

۲-۲-۶- دارالمشرق

يلتقی إبن فطوّمة فی دارالمشرق بكاهن الدار و حكيمها ثمَّ بـ« عروسة» فيتزوّج منها و يُعتقل بتهمة«تنشئة ابنه الأكبر على الكفر». أهل هذه الدار

بدائيون و وثنييون و يعبدون القمر«أهل المشرق جميعاً يعبدون القمر!» و هم من الرجال و النساء على السواء، عرايا تماماً. وَ العرى عادة مألوفة لهم. و « لكلّ مدينة سيّد هو مالكها، يملک المراعی و الماشية و الرعاة، الناس عبيده...»(محفوظ، ۶۵۱).

إنَّ لفظة «المشرق» ذات دلالة سيميائية، هذه الكلمة فی دلالتها المعجمی تدل على المكان الذی تطلع منها الشمسُ، أی تتولد منه، لتمضی أولی مراحل حياتها اليومية و تتحرک نحو المغرب و الكمال لتدل علی المرحلة الأولی لحياة البشرية أو طفولية الإنسان، لان أهل «دار المشرق» يمارسون طقوسا بدوية تدلُّ على بداية طريقٍ خاصٍ لشروع رحلة خاصة و هذا واضح من الأحداث التی حدثت لِإبن فطوّمة فی دار المشرق، و التی تنبئ عن الدلالات السيميائية المتنوّعة كالقهقرية و اللاثقافية و السلوک البدائی الأولی للبشرية فی علاقلاتها بين الرجل والمرأة.

۳-۲-۶- دارالحيرة

ينتقل إبن فطوّمة إلى دارالحيرة التی تبدو أكثرتقدّما من دار المشرق، و الناس فيها يعرفون الزراعة و يدينون بالولاء لملكهم و يتمُّ العيشُ بإرشاد الملک و المهم هو الملک! و إرشاداته هی أقصی ما يطمح الإنسان من عدل و سعادة!! إنّ الاحداث الواقعة لابن فطوّمة فی هذه الدار تدل علی أن النظام الحاكم لها نظام مستبدّ انتهازی و أكثر وثنياً من دار المشرق، لأنّ الناس كلّهم عبيد الملک و لأجل ذا قضی ابن فطوّمة عشرين عاما فی السجن بتهمة زائفة دبّره له حكيم الدّار ديزنج(محفوظ،۶۶۴). الدلالة المعجمية لكلمة «الحيرة» تفی بما يحار منه الإنسان من أمر غير مصدق عليه و هذا ما يقع فی هذا الدار من تهم زائفة و عبادة ملک و العيش فی مجتمع لا اختيار لأفراده و لا حقّ، و كلّ شئ من مال و نفوس، يستأثرون به الملک و أعوانه، و ذلک كلّه يحدث فی القرن العشرين! و الإنسان فی حيرة ممّا يحدث فی هذا الدار من سوق الناس إلى الحرب و السجن و مثل ذلک.

۴-۲-۶- دارالحلبة

ينطلق إبن فطوّمة فی رحلته إلی دار الحلبـة، التـی تعجبـه و تدهشـه فـی اللحظة الأولی،« أهلاً بكم فی الحلبة عاصمة دار الحلبـة، دار الحُرية...دهشـتُ لسماع الكلمة الملعونة فی كلّ مكان..تركت قدمی تقودانی بحريـة فـی مدينـة الحرية» إذ يجدها المجتمع الأمثل للحرية فهی أرض الحضارة المتطـورة و أنَّ أصحاب الديانات المختلفة يتمتعون بالمساواة و الجـدّ و الرزانـة و تعلـو قـيم التّسامح و الحرية و الديمقراطية و تقديس العلم و العمل«إنها دار الحرية، تمثلَّ فيها جميع الديانات،.. و منذ اللحظة الأولی شملنی شعور بأنّنی فی مدينة كبيرة يذوب فيها الفرد فلا يدری به أحد... الحرية هی القيمة المقدسة المسلّم بها عند الجميع!»(محفوظ، ۶۶۸).

من خلال ما سبق نَستَشفُّ من عنوان دار الحلبـة، أنَّهـا تـدلُّ علـی نظـام رأسمالية الغربية، النظام الذی يروغ إبن فطومة و لكن لا يلبث حتّی يفهـم أنـه نظامٌ تنقصه الإحساس بالمسؤولية أحيانا: « فقلت مدافعاً: داركم لا تخلـو مـن فقراء و منحرفين. فقال بحماس: الحرية مسؤليّة لايسـتطيعُ الإضـطلاع بهـا إلاّ القادرون و ليس كلّ من ينتمی إلی الحلبة أهلاً لهذا الانتماء، لا مكـان للعجـزة بيننا. فتساءلت بحرارة: أليست الرحمة قيمة مثل الحرية؟!»(ن.م: ۶۷۳). ثـم إنّ الفوضی يسود هناک فی الدين و الاعتقاد:« كانت فی الأصل وثنية، وَ أتاحَـت حريّتها الفرصة لكلِّ مَن شاءَ أن يدعوَ إلی دينِه» و فـی العلاقـات الإجتماعيـة «كلُّ طائفة تحتفظ فی داخلها بتقاليدها الذاتية» و إنَّ الحكومة لاتلتزم بـدين و هذا يعنی إنَّنا نری مجتمعاً مثالياً و هذا يدلُّ علی أنَّ هـذا المجتمـع بعيـدٌ عـن المدينة الفاضلة التی يبحثُ عنها إبن فطوّمة لأنَّ الحريّة المطلقة فی دار الحلبـة تدمرُ إنسانية الفرد.

للحلبة حسب قراءتها، فی دلالتها المعجمی، معنيـان الأوّل: الحَلَبَـة بفـتح اللام، جمع حالب من حلب القوم : اجتمعوا أو حلب الشاة : اسـتخرج مـا فـی ضرعها من لبن أو مجازا من حلب الدهر أشطره : جرب أموره خيره و شرّه و

الثانی: الحلْبة بسكون اللام، خيل تجمع للسباق من كل أوب (أنيس، و الآخرون،ج۱: ۱۹۱). إنّ كلا الدلالتين تصدق فی الرواية فی الأول أنّ دار الحلبة دار ينتفع كل من يعيش فيه حسب اعتقاداته و ميوله و تحربته و فی الثانی تتسابقون كل من فيه للعمل الجاد. هذا العنوان تدل دلالة سيميائية علی أنها تتمتع بحرية و انتفاع من الحياة.

۵-۲-۶- دارالأمان

ابن فطوّمة فی البحث عن المدينة الفاضلة يغادر دار الحلبة متوجّها إلی دار الأمان. فأوّل ما يواجهه قانون صارم ألزمه علی اختيار مرشد إجبارى، ليرافقه فی كلّ أعماله و يراقبه فی كلِّ حركاتهِ. فسرعان يشعر بالضيق فيها: « شتاءها قاتلٌ، خريفها قاس، ربيعها لا يحتمل، ..» و النظام السياسی لدار الأمان نظام استبدادی شيوعی لًا مفرَّ من قوانينه الصارمة التی لامجال فيها للحرية الفردية: «نظامنا يطالبنا بألاّ يتدخّل إنسانٌ فيما لا يعنيه و أن يركّز كلّ فردٍ علی شؤونه... و الجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخلية أو الخارجية» (محفوظ،۶۸۳).

إنَّ لفظة «الأمان» التی وردت فی هذا العنوان، فی دلالتها المعجمی تعنی الأمن، الراحة، فحضورها فی بناء العنوان و محورها يؤهّلها لأن يكون الأمنُ و الأمانُ موفورٌ فی هذا الموطن. ثم أنّها قد تدل اصطلاحيا علی «النظام الأمنی القائم علی التواجد العسكرى» و فيها إشارة سيميائية علی أن هذه الدار يحكمها نظام مستبد عسكرى تصدر الحرية الفردية بحجة توفير الأمن و هذه حقيقة واقعة فی القرن العشرين و هو الحكم الشيوعی الزائف الذى بنی حكمه علی الدعايات الزائفة للقانون:« انظر إلی الطبيعة، أساسها القانون و النظام لا الحرية!»(نفسه، ۶۸۱). و يكتفی بحاجات الإنسان المادية و لا غير و يعزو صوت الحرية إلی:« صوت الشهوة و الوهم»(نفسه، ۶۸۲).

۶-۲-۶- دارالغروب

فرارا من الحرب الدائرة بين أقوى دارين: الحبلة و الأمان و هرباً من النظـام الأمنی المتشدد، توجه إبـن فطوّمـة، فـی رحلتـه المعرفيـة، إلـی دار الغـروب الأسطورية التی لاحاكم لها و لا حراس، فـدخلها بسـلام آمنـا(محفوظ،۶۸۴)، فوجدها جنة بلا ناس، و خيراتها مبذولة بـلا حسـاب وحيـاة أهلهـا «موافقـة للحق و مفارقة للخلق»(نفسـه، ۶۸۵) و هـم «مهـاجرون مـن شـتّی الأنحـاء، يجيئـون إعراضـاً عـن الهـواء الفاسـد، و ليعيـدوا أنفسـهم للرحلـة إلـی دار الجبل»(نفسه، ۶۸۶). و سبيل حصول المعرفة فيها إنما بالإشراق الداخلی لأنـه «بالتركيز الكامل يغوص الإنسان فی ذاته»(نفسه، ۶۸۷). و ذلک بإشراف شـيخ هرم يقوم بتدريب الناس و تعليمهم لاستخراج القوی الكامنة من ذواتهم تمهيدا للوصول إلی دار الجبل. فيسأله إبن فطوّمـة:« و متـی أعـرف أنّنـی وُفّقـت؟» فيجيبه :«عندما يتأتّی لک أن تطير بلا أجنحة!»(نفسه، ۶۸۶).

الدلالة المعجمية للفظة «الغروب» تعنی مكان غروب الشمس أو زمانها، أی حين تأوی الشمس إلی كهفها فی رحلتها اليومية التی تؤذن بانتهاء كلّ شئ فی النهار من مصائب وآلام للوصول إلی الهدوء الليلی و سكنه. بـدأ إبـن فطومـة رحلتَه من دار المشرق وانتقل من دار إلـی دار وراء المعرفـة حتـی وصـل دار الغروب، فوجد أنّ سبيل حصول المعرفة ليست خـارج نفسـه بـل إنّ المعرفـة الحقيقة هی فی داخل الإنسان و فی ذاته. إذن فلهذا العنـوان إشـارة سـيميائية إلی الإيواء إلی النفس فی هدوء و سكون دون جلبة و كما أنّ الشـمس تـأوی إلی كهفها فعلی الإنسان أن يأوی إلی نفسه لاسـتخراج قـواه الكامنـة تمهيـدا للوصول إلی آخر مرحلة للمعرفة و الكمـال. و لأجـل ذا أحـسّ أبـن فطومـة بانتمائه إلی دار الغروب ما ضاعت رحلته سدی(نفسه، ۶۸۵).

۷-۲-۶- «البداية» أو «دار الجبل»

البداية لفظة أطلقها محفوظ علی آخر دار فی رحلة ابن فطوّمة الشاقّة لتـدلّ

على نفس المعنى المعجمى لأنّ رحلة ابن فطوّمة لم‌يكن نهايتها الوصول إلى دار الجبل و الوقوف فيها بل كان نهايتها الحصول على دواء شاف يرجع به إلى وطنه ليعالجه أى إنّ نهاية الرحلة تتجلى فى بدايتها و هو الرجوع إلى الوطن حاملا دواءه الشافى . هذه الدلالة السيميائية تكشف عن جمال اختيار هذه اللفظة.

و للفظة «دار الجبل» خطورة تدل على الكمال و الأسى و الاعجاب و أنّه سرّ مغلق كُتب عنها كثيرا و ما زاره آدمى و كأنها معجزة البلاد (محفوظ، ۶۴۵و۶۴۴). فهى «مدينة فاضلة» أو كأنّما هى «معجزة الدهر»، تقصدها الكثيرون و تجدها القليلون.

تبرز عدة الدلالات السيميائية لهذا العنوان فدلالتها المعجمى، تدلّ على مكان مشرف عالٍ تحصر العيون و فى هذه الدلالة إشارات سميائية منها أنّ وصول قمّته يحتاجٍ إلى كدّ النفس و تحمل المشقة فالتجار و طلاب الدنيا لا يمكنهم الصعود إليها: «عند الفجر غادرت القافله دار الغروب. لأوّل مرّة يستأثر بها الرحّالة و المهاجرون و لايرى بها تاجر واحد».(محفوظ، ۶۸۸) ثم إنّ الجبل توحى باستحكام و عظمة و ما إلى ذلک من الدلالات التى تستدعى الإعجاب و الكمال و همّة النفس للصعود إليها. فنجيب محفوظ اختار هذا العنوان مناسباً للدلالات التى تشير إليه النص ولكنه يجعل قارئه فى نهاية الرواية فى حالة الاستغراب تماما لأنّ الرحلة ينتهى دون الوصول إلى دار الجبل و دون أى شرح عن هذه الدار سائلا :«هل دخل دار الجبل و أىّ حظّ صادفها؟ و هل أقام بها لآخر عمره أو رجع إلى وطنه كما نوى....علم ذلک كله عند عالم الغيب و الشهادة».(محفوظ، ۶۸۹) و هذا يشير تماما فى إشارة سيميائية إلى الغاية التى يقصدها المتصوفون فى تهذيبهم النفسى للوصول إلى مقام الفناء الذى لايعرفه إلا من وصله و من وصله فلا يمكنه توصيفه.

۷- سيميائية الشخصيات

الشخصية الروائية فى نظرية السرد الحديثة «إنسان من ورق»(مرتاض،

١٩٩٨: ٧٣)، و أنّها محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية محددة ليحقّق هـدفا جماليا ما، و لابد للناقد الروايی أن يحلـل بنـاء هـذا الإنسـان الـذی «خلقتـه كلمات الراوی ليضع يده علـی الصـنعة الفنيـة فـی العـالم الروائـی التخييلـی» (الفيصل،٢٠٠: ١١٦). و أن يقوم بدراستها فی « إطـار دلالـی: حيـث تغتـدی الشخصية مجرد عنصر شكلی و تقنی للغة الروائيـة»(مرتـاض،١٩٩٨: ٧٦). و رغم كونها من صنع الخيال إلاّ أنّها تمثل طبقة أو شـريحة إجتماعيـة أو تيـارا فكريا و هذا ممّا يكسبها صفة النموذجية و يجعلها ركنا أساسيا للعمل الروايی.

إنّ التحليل السيميايی للشخصية الروائية يتركّز على أنها صـورة للشـخص البشری و لابدّ من رصد كلّ عناصر بنائها من وصـفها الخـارجی و النفسـی و اختيار الإسم و اللباس و الإنتماء الاجتماعی و الثقافی و الإيـدلوجی (العرجـا، ٢٠٠٢: ٢١) و إنها فی الرواية لاتتحدد، فی الغالـب، بالعلامـة التـی تُعلـم بهـا، ولكن بالوظيفة التی تُوكَـلُ إليها(مرتـاض،١٩٩٨: ٨٧). أی بالفعـل أو الحـدث الذی يخرج من الشخصية خلال الرواية لأنّ مـا تفعلـه الشخصـية مـن حـدث «يقدِّمَ فی النهايـة تجربـة إنسـانية ذات دلالـة معينـة» (القضـاه،٢٠٠٠: ٦٩). فالعلاقة الدلالية بين أسماء الشخصيات و بين الوظائف التی وكلت إليها علاقـة سيميائية تساعد القارئ على فهم النص السردی و فكرته الرئيسة.

بما أنّ المضمون السردی لرواية رحلة ابن فطوّمة هو «الشكف عن الحقيقة» فی رحلة صوفية. فالشخصيات المتعددة التی أوردها نجيب محفوظ فی الرواية تحمل الملامح الصوفية سواء فی فكرتها أو فی عمليتها. و فی هذا الإطار فـإنَّ الرواية تمثّل تجربةً فنيةً تعتمد على الرؤية الصوفية فی إطار رمزی ككلّ عمـل سردی صوفی و ذلک مـن خـلال شخصـياتها و بنيتهـا السـردية و مـن دون الإغراق فی استخدام الصور الرمزيـة و الابتعـادِ عـن العقـل و الفهـم الصـحيح لحقائق الأمور.

١-٧- شخصية إبن فطومة:

بطل الرواية الذی تتمركز الأحداث و الشخصيات كلُّها حـول الرحلـة التـی

تقوم بها، فعنونَ بها الكاتب روايتَه. كان « محمد قنديل العنابی» المشهور بابن فطوّمة، قد تيتّم طفلاً و عرف نفسه باحثا عن الحقيقة و الحرية و محبا للمعرفة من أجل ذلک قام برحلته هذه (محفوظ،۲۰۰۷: ۶۷۲).

الوظيفة التی عهدت إليه فی الرواية هو الكشف عن الحقيقة و الحصول على دواء شاف لوطنه الجريح و ذلک فی رحلة كثير المغامرة و المجازفة، حيث تتحول شخصيته من صورة إلی صورة فی اندفاعات جرئية لإشباع رغباته: « إنّی أتخلی عن حضارةٍ و أُسلّم نفسی لحضارةٍ جديدة. أتوقّ إلی الحياة بعيداً عن الرقباء »(نفسه، ۶۵۰). قد يبعد عن هدفه حينا و ينساه حينا آخر طامحا إلی حياة مستقرة و ذلک لوقوعه فی شرک الحب لـ« عروسة» فی دار المشرق و«سامية» فی دارالحيرة، حيث الإغراء لترک الرحلة و الغاية التی كانت عليها، شديدٌ ، فيصف نفسه فی دار المشرق قائلا: «إنّی مستغرق بالحبّ و لا شأن لی بالزمن. لا أهمية الآن للرحلة و لا للمهمة، ... و أطمح إلی حياة مستقرة و لو ربطتنی فی النهاية بالمشرق »(نفسه، ۶۵۷). ولكنه يثوب إلی رشده مخاطبه نفسه: «و قلت لنفسی إنّ خيرَ ما تفعل يا رحالة أن ترى و تسمع و تسجّل و أن تتحاشی التجارب. و أن تعاود أحلامک عن دار الجبل. و أن تحمل الدواء الشافی لجراح الوطن»(نفسه، ۶۵۹).

وظيفته هذه تجعله «الرحالة الوحيدة» بين رفاقه التجار الذين يرمقونه بنظرات غريبة ساخرين إيّاه لقيامه برحلة من نوعها: « سأذهب حتّی دار الجبل! فتساءل أحدهم باستهانة: و ما دار الجبل؟ و قال ثان بفخار: نحن دار الإسلام...و قال الثالث: التجارة من العمران و الله يأمرنا بالعمران... و قال الرابع: كان النّبی عليه الصلاة و السلام تاجراً. فقلت كالمتعذر: و كان أيضاً رحالةً و مهاجراً! فقال الأول: ستبدّد ثروتک فی الترحال و ترجع إلی بيتک فقيراً... فقلت كاظماً غيظی: لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل...»(نفسه، ۶۴۸). فتظهر حينئذ شخصيته فی حالة القبض عند الصوفی و هو « أخذ القلب بوارد يشير إلی ما يوحشه من الصدِّ و الهجران و أمثال ذلک»(العجم،۱۹۹۹: ۱۴۳) و

يصف حالته باليأس المرير: «...ذقت طعم اليأس المرير و عرفت أنَّه حقيقةٌ تقع لا حكايةَ تروى. ضاعت عروسة، تلاشت الرحلة، تبدّد حلم دارالجبل، اختفى وجودی نفسه من هذه الدنيا...»(محفوظ،۲۰۰۷: ۶۶۴).

ما ذكرناه من دلالات سيميائية فی العنوان يغنينا عن تكرارها فنضيف إليها دلالة الوظيفة التی وكلت إلی شخصية ابن فطوّمة فی الرواية لتدل علی كونه رمزا لإنسان صوفی ذی عزيمة، مريدٍ، حُرٍّ مخلص، يريد أن يصلَ إلی المعرفة و الكمال الذی ليسَ بعده كمالٌ و الحياة التی يتكاملَ فيها العقل و الروح، و يتحقق فيها العدل، العمل، الحرية و النقاء النفسی، و الصوفيون هم الذين «يسلكون طريق السياحة و الأسفار و الإغتراب عن البلدان و خمول الذكر و هی أوضح الطريق»(الأرموی،۱۳۱۰هـ ق: ۲۷۱). معرضين عن الهواء الفاسد، منسين الدنيا و ما فيها، و قد تتعرضهم التجارب المخطئة ولكنهم يصيبون إلی رشدهم و ابن فطوّمة فی رحلته شطر دار الجبل يكشف شيئا فشيئا ملامح الحقيقة و الكمال اللذين ينشدهما فی دارالجبل. و هو صوفی كشاف الحقائق فی تجاربه النادرة المختلفة.

۲-۷- شخصية الشيخ مغاغة الجبيلی:

تلک الشخصية القوية المهيبة العظيمة فی عينی بطل الرواية. فتلقی عنه ابن فطوّمة القرآنَ و الحديث و الفقه و الحساب و اللغة و الأدب (محفوظ،۲۰۰۷: ۶۴۳). و لم يتلق من غيره شيئا. وكّلت إليه، فی الرواية، وظيفة إرشاد البطل إلی الطريق الصحيح و الشيخ يعتقد أنّ الإسلام اليوم قابع فی الجوامع لا يتعداها إلی الخارج و لن يعثر الإنسان علی الجديد فی ديار الإسلام و أنها بعيدة كلّها عن روح الإسلام الحقيقی (محفوظ، ۶۴۴). فحديثه عن الإسلام و الرحلات أثار أشواق ابن فطوّمة لدرجة الاشتعال و ألهمه فكرة الرحلة لتكتشف ديارا جديدة و غريبة اسمها دار الجبل و«كأنّها سرٌّ مغلق»(نفسه، ۶۴۴). و راح الشيخ مغاغة الجبيلی ينوّر عقل ابن فطومة و روحه و يبدّد الظلام من حوله(نفسه، ۶۴۵). فهو فی هذا رمز للمعلم الهادی و الراشد الواعی.

أما لاسمه، ففی دلالته المعجمية، إشارة سيميائية إلى «غاغة» فی معناها المعجمی علی « نبت معمّر طيب الرائحة»(أنيس و الآخرون،۱۹۹۰م،ج۲: ۶۶۶). لتشير إلى حديثه الناعم الحلو كالطيب و فی نسبته إلى مصغر الجبل أی:«الجُبيل» دلالة علی أنّه لم يكن قد علا علی الناس العاديين كثيرا، لأن الجبل هو ماعلا من سطح الأرض أو جاوز التل ارتفاعا و لكن الجُبيل أقل منه ارتفاعا، رغم هيبته و عظمته، و للتصغير إشارة سيميائية إلى عجزه فی مواصلة رحلته إلى النهاية و عودته إلى حياته العادية و وطنه الأول. هذا ما أشار إليه الشيخ مغاغة الجبيلی قائلا: «ظروفُ الحياةِ و الأُسرةِ أنستنی أهمَّ هدفٍ مِن الرحلةِ وَ هو زيارةُ دارالجبل»(ن.م: ۶۴۴). و للمعنی المعجمی لـ«الشيخ» إشارة سيميائية إلى اتّصافه بالحلم و العقل و ذلک واضح فی موقفه أمام رحلة ابن فطوّمة: «و طرحتُ الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولكنّ موقفه كان واضحاً تماماً فهو يؤمن بالعقل و حرية الاختيار...»(ن.م: ۶۴۴). يبدو أنّ محفوظ فی تسميته لهذه الشخصية بـ« الشيخ مغاغة الجبيلی» عمد إلى المعنی المعجمی فی دلالتها السيميائية ليعطی الأداء اللغوی للرواية معنی إيحائيا مناسبا للوظيفة التی عهد إليها فی روايته.

۳-۷- شخصية الأم:

إنَّ بطل الرواية منسوبة إلى أمه خلافا للتقاليد السائدة فی المجتمع العربی و كانت اسمها «فطومة الأزهری»، و فيما ذكرنا من دلالته المعجمية، رأينا أنها تدل علی القطع و الانفصال و الأم منفصلة عن عائلته الأولی باحثة عن الحياة المثلی لابنها فهی إمرأة طيبةٌ ساذجةٌ متعاطفةٌ « و شاركت فی تكوينی بحبّها و جمالها...و لم تتردّد مرّةً عن إعلان إعجابها بجمالی و نجاحی» (محفوظ، ۶۴۵). فوظيفتها الروائية هی المشاركة الفاعلة فی تكوين شخصية ابن فطوّمة الدينية و هذا مناسبا تماما مع كلمة الأزهری فی إشارتها السيميائية للجامع الأزهر الشريف والمركز الدينی الكبير و الشهير فی القاهرة.

و هی، فی وظيفتها الروائية، رمز للشخصية الدينية التقليدية فی إيمانها و

رضائها و فی نظرتها الجميلة إلى ما يحدث فی حياتها، مستسلمة لها لأنّها تعتقد أنَّ كلّ شیءٍ يحدثُ فی الحياة فهو قدرٌ محتومٌ من عندالله. نلمِسُ كلَّ ذلک فی حوار دَارَ بينه و بين ابنها: «كلامک كثيراً يكدّر صفوی... و تساءلت عن السبب فقالت: كأنّک لا ترى إلّا الجانب القبيح من الحياة! و لم تكن تنكر أقوالی أو ترى فيها أی مبالغة، ولكنّها أفصحت عن إيمانها قائلةً: اللهُ صانعُ كلّ شیء، وَ له فی كلّ شیء حكمهُ... فقلت مندفعاً: ساءَنی الظلم وَ الفقر وَ الجهل! قالت: اللهُ يطالبُنا بالرضا فی جميع الأحوال»(محفوظ، ۶۴۵).

۴- ۷- شخصية عروسة:

شخصية ذات دلالات مزدوجة فی مواقف مختلفة لأنها تتغير و تتحول، يبدو أن الكاتب قصد بها دلالة بعيدة المعنى فلا يمكن الالتفات إليها فی النظرة الأولى، و منذ استحضارها فی الرواية، فی دار المشرق، لعبت دورا أساسيا فی حياة ابن فطوّمة ففی دار المشرق شُغف بها و أحبّه لأنّه «ما رآها شاب إلا أحبّها»(نفسه،۶۵۳). فهی المحبوبة و الزوجة التی أنجبت ثلاثة أبناء له فيحاول ابن فطوّمة أن ينقذ روحها و لن تسمح له بهذا أبداً(نفسه، ۶۵۷و۶۵۸). و فی دار الحيرة تصبح أسيرة حربية تباع فيشتريها ابن فطوّمة ولكن الحظ خالفه ففی مؤامرة استحوذ عليها حكيم الدار ديزنج و سُجن ابن فطوّمة بسببها، و فی دار الحلبة بحث عنها فلم يظفر بشئ ذی بال إلا علم أنها سافر إلى دار الأمان و من هنا إلى دار الغروب هكذا أصبحت شخصيتها تلازم ابن فطوّمة فی رحلتها فلا يمكنه نسيانها فی كل دار من دور الرحلة.

دلالة العروسة المعجمية هی «الزوجة مادام فی عرسها»(أنيس والآخرون،۱۹۹۰م،ج۲: ۵۹۲). هذه تتناسب و الشخصية الروائية التی تتبدل أزاوجها من دار إلى دار كأنها فی عرس دائم. و لأحوالها المتغيرة إشارة سيميائية إلى وظيفتها الروائية و هی تمثيل للدنيا المتغيرة أحوالُها و الكثيرة مصائبها و اقترانها بالإنسان من البداية أی المشرق حتى النهاية أی المغرب. والتقى بها فی دار الحلبة و «كأنها معجزة انبثقت من المستحيل»

(المحفوظ،۲۰۰۷: ۶۷۷). و علم أنها متزوجة من رجل بوذی و أنها ستقوم برحلة إلى دار الأمان ومنها إلى دار الجبل ثم إلى الهند، و شعر فی نفسه هزة لحب قديم (نفسه، ۶۷۷). و فی دار الغروب بحث عنه إلى أن أخبره الشيخ بأنها سبقته إلى دار الجبل و ذلک « بفضل ما عانت فی حياتها من آلام...»(نفسه، ۶۸۷). هكذا أصبحت عروسة شخصية مقترنة بابن فطوّمة فی رحلتها إلى دار الجبل ولكنها بطريقتها و معاناتها و آلامها الخاصة، كأنها الدنيا التی تصاحب الإنسان من البداية إلى النهاية.

۵-۷- شخصيات «كاهن القمر»، و «الحكيم ديزنج» و« الحكيم مرهم الحلبی» و«فلوكة» و «الشيخ»:

شخصية «حكيم العاصمة أو كاهن القمر» فی دار المشرق(نفسه، ۶۵۳و۶۵۵). و «الحكيم ديزنج» حكيم دار الحيرة المخيف(نفسه، ۶۶)، و« الحكيم مرهم الحلبی» المتصف بالعقل والحزم فی دار الحبلة (نفسه، ۶۷۲) و شخصية «فلوكة» المرشد و المرافق له فی دار الامان(نفسه، ۶۷۹-۶۸۲) و شخصية« الشيخ » فی دار الغروب و الساكن فی عمق الغابة لتدريب المسافرين إلى دار الجبل (نفسه،۶۸۶) هذه الشخصيات الروائية كلها، رغم الفروق الطفيفة فی أوصافهم و شخصياتهم، تقوم بوظيفة روائية مشابهة و هی شرح المعتقدات و الطقوس الدينية السائدة فی كل دار كأنهم مثقفو هذه الدور ليفسحوا المجال لابن فطوّمة فی حديثه معهم، للمقارنة بين ما هو سائد فی هذه الدور و ما يجری فی وطنه الجريح فی حسرة لا تنتهی. لكلّ هذه الشخصيات فی أسمائهم و وظيفتهم إشارات سيميائية تتناسب مع المعتقدات السائدة فی كلّ دار. فمثلا كاهن القمر بسيط فی أفكاره و حياته و هذا يتناسب مع المعتقدات البسيطة السائدة فی دار المشرق فی عبادة القمر و أما الحكيم ديزنج فشخصيته مهابة و مخيفة و هذا يتناسب مع عبادتهم الملک كإله المملكة و يتصرفه كما يشاء متناسب لحكم استبدادی مطلق و شخصية الحكيم مرهم الحلبی فی دار الحبلة

فی اتّصافه بالحكمة و اعتقاده بالعقل و الحرية.

ولكن شخصية الشيخ تتفاوت بعض التفاوت فی إشاراتها السيميائية لأنّه «مدرّب الحائرين» ليساعدهم على نزاهةِ أرواحِهم عن المعاصی لِيعدّوا أنفسَهم للرحلة إلى دار الجبل: «شيخٌ هرمٌ. ...فذهلتنی حيرة شديدة و سألته: و كيف تعدّهم للرحلة؟ فقال ... إنّی أدرّبهم بالغناء لتمهيد الطريق، ولكن عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها. و معناه أنّ فی كلّ إنسان كنوزاً مطمورة عليه أن يكشفها خاصّة إذا أراد أن يزور دار الجبل»(ن.م: ۶۸۶و۶۸۵). و فی هذه الوظيفة التی وُكلت إليه فی الرواية دلالة واضحة على أنها ترمز إلى «شيخ صوفی»، يدرب الحائرين، الطريق الصحيح لاستخراج قواهم الكامنة للوصول إلى الكمال.

النتيجة

نستخلص ما يلی من النتايج مما مرّ من البحث السيمائی للرواية رحلة ابن فطومة:

۱- إنَّ للعنوان، أی: «رحلة ابن فطوّمة» دلالات معجمية تدلّ على أنّ الرحلة لا تنحصر فی شخص واحد بل هی تجربة إنسانية تشمل كل إنسان باحث عن الحقيقة و أنّ مادتها مقتبسة من التراث العربی والدينی شكلا و معنیً.

۲- إنّ عناوين الرواية، تدلُّ على أنها أختيرت بدقة لتوحی معناها السيميائی لدلالة كل عنوان على دار تمثل حياة دينية أو سياسية فی عصرنا الحاضر فی تعدد أنظمته السياسية و الاجتماعية و الدينية، من البدائية و الوثنية(دار المشرق) إلى الأنظمة المستبده (دار الحيرة) ثم الرأسمالية(دار الحلبة) و الإشتراكية الفاشية(دار الأمان) ثمَّ الحياة الروحية المتمثلة فی دار الغروب و أخيرا العدالة و الإسلام الحقيقی الموجود فی دار الجبل. و قد روعی مستوى التطور البشری و تقدمه فی مراحل هذه الرحلة و فی ترتيب العناوين.

۳- إنّ دلالات أسماء الشخصيات فی هذه الرواية تشير إلى أنّ الكاتب قد عمد إلى اختيارها قصدا ليُشحن هذه الأسماءَ طاقتها الإيحائية فی إشاراتها السيميائية على رموز فكرية و صوفية و دينية كل حسب وظيفتها الروائية،

مثلا «ابن فطوّمة» فی دلالتها المعجمیة تدلّ علی کلّ إنسان باحث عن الحقیقة و «الشیخ مغاغة الجبیلی» تدلّ علی شخصیة مرشد ذات أقوال ناعمة حسنة لیؤدی وظیفتها الروائیة.

۴- تتمرکز الأحداث و الشخصیات و الدور السبعة و الزمان و المکان حول شخصیة «إبن فطوّمة» حیث لا یمکن فهم واحد منها إلاّ فی نسبتها إلی هذه الشخصیة و هذا ممّا أدّی بمحفوظ أن یعنون روایته بهذه الشخصیة الموحیة فی إشاراتها السیمیائیة إلی التراث الأدبی و الصوفی.

۵- إنّ سیمیائیة العناوین و الشخصیات تتناسب و رؤیة الکاتب المثالیة، فی الکشف الشهودی للحقیقة، و هو ما أخذه الکاتب عن النظرة الصوفیة إلی حقیقة الأشیاء للوصول إلیها بالقلب و استخراج القوی الکامنة للنفس لا بالعقل. فالشخصیات المتعددة التی أوردها نجیب محفوظ فی الروایة تحمل الملامح الصوفیة سواء فی فکرتها أو فی عملیتها. فشخصیة «الأمّ» رمز للشخصیة الدینیة التقلیدیة فی إیمانها و رضائها و فی نظرتها الجمیلة إلی ما یحدث فی حیاتها، و شخصیة« الشیخ » فی دار الغروب ترمز إلی«شیخ صوفی»، یدرب الحائرین، و یرشدهم إلی الطریق الصحیح لاستخراج قواهم الکامنة للوصول إلی الکمال.

پی‌نوشت

1. Semiotics
2. text Narrative

المراجع

أ)العربیة

١. الأرموری، عمادالدین.(١٣١٠هـ ق). *حیاة القلوب فی کیفیة الوصول الی المحبوب*. بیروت: دارالفکر.

٢. أنیس، ابراهیم و عبدالحلیم منتصر و عطیة الصوالحی و محمدخلف الله احمد.(١٩٩٠م). *المعجم الوسیط*. القاهرة: مجمع اللغة العربیة.

٣. اصغری، جواد.(١۴٢٧هـ ق). «الرمزية فی أدب نجيب محفوظ». *مجلة اللغة العربية و آدابها*. السنة الأولی. العدد٣. شتاء١۴٢٧. صص۵-١٧.
۴. اقبالی، عباس و سيدرضا ميراحمدی.(١٣٨۵هـ ش). *المجانی من النصوص العرفانية*. (ط ١). تهران: سمت.
۵. بروينی، خليل وكبری روشنفكر وعلی كنجيان خناری ونعيم عموری.(١۴٣٢هـ ق).« التناص القرآنی فی رواية «الص و الكلاب» لنجيب محفوظ». *مجلة اللغة العربية و آدابها*. السنة السادسه. العدد١١.صص٢١-۴٧.
۶. بروينی، خليل و كبری روشنفكر و علی كنجيان خناری و نعيم عموری.(١٣٩٠هـ ش). «جدلية البحث عن الله فی رواية الطريق لنجيب محفوظ». *فصلية اللسان المبين*. السنة الثالثة، المسلسل الجديد العدد۵. صص١٠۶-١٢٠.
٧. بروينی، خليل و نعيم عموری.(١۴٣١هـ ق). التناص القرآنی فی رواية حكايات حارتنا لنجيب محفوظ. *آفاق الحضارة الإسلامية*. صص١۴۵-١۶٢.
٨. برهومه، عيسی عوده.(٢٠٠٧م). «سيمياء العنوان فی الدرس اللغوی». *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*. العدد٩٧. الكويت.
٩. جمال الدين محمد بن مكرّم ابن منظور.(١٩٩٨م). *لسان العرب*. (ط ١). بيروت: دار احياء التراث العربی.
١٠. جمعه، حسين.(١٩٩١م). *أدب الرحلة*. (ط ١). القاهرة: الشركة المصرية العامة.
١١. الجندی، أحمد.(٢٠١١م). «الجانب الروحی و البعد الصوفی فی حياة وأدب نجيب محفوظ». *صحيفة النهار*. العدد١١٨٨. الثلاثاء٣ربيع الآخر. مصر.
١٢. حمداوی، جميل.(١٩٩٧م). «السيميوطيقا، و العنونة» *مجلة عالم الفكر*. مجلد٢۵. العدد٣. المجلس الوطنی للثقافة و الفنون.
١٣. روشنفكر، كبری و صلاح الدين عبدی.(١٣٨٣هـ ش). صدی المرأة فی الأعمال النقدية لنجيب محفوظ. *مجلة العلوم الإنسانية*. السنة الحادية عشرة. العدد١١. صص۵۵-۶۴.
١۴. شوقی سليمان، سعيد.(٢٠٠٠م). *توظيف التراث فی الروايات نجيب محفوظ*. (ط ١). القاهرة: ايتراك للنشر و التوزيع.
١۵. ضيف، شوقی.(١٩٨٧م). *الرحلات*. ط ۴. القاهرة: دار المعارف.
١۶. طهماسبی، عدنان و جواد اصغری.(١٣٨۵هـ ش). مظاهر الواقعية التفاؤلية فی أدب نجيب محفوظ و تداعياته. مجلة *اللغة و الأب لجامعة طهران*. كلية الآداب و العلوم الإنسانية. العدد١٧٨. صص٢١-٣۶.

۱۷. عبدالقادر، فاروق.(۲۰۰۳م). *فی الرواية العربية المعاصرة*. من منشورات www.kotobarabia.com.
۱۸. عبدالمعطی، فاروق.(۱۹۹۴م). *نجيب محفوظ بين الرواية و الأدب الروائی*.(ط ۱). لبنان: دارالكتب العلمية.
۱۹. العجم، رفيق.(۱۹۹۹م). *موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلامی*.(ط ۱). صوفية: مكتبة لبنان ناشرون.
۲۰. العرجا، جهاديوسف.(۲۰۰۲م). *سيميائية الشخصيات فی «القاهرة الجديدة» لنجيب محفوظ*. *الجامعة الإسلامية بغزة*. كلية الآداب قسم اللغة العربية.
۲۱. فاليريا كيربتيشنكو.(۱۹۹۳م). «الرواية المصرية بعدالستينيات». *مجلة الفصول*. المجلد۱۲. الرقم۱.صص۱۵۹-۱۹۰.
۲۲. فهيم،حسين محمد.(۱۹۸۹م). *ادب الرحلات*. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
۲۳. الفيصل، سمر روحی.(۲۰۰۰م). بناء الشخصية الروائية. الموقف الأدبی. العدد۳۴۵. دمشق: التحاد الكتاب العربی.
۲۴. القضاة، محمدأحمد.(۲۰۰۰م). *التشكيل الروائی عند نجيب محفوظ(دراسة فی تجليات الموروث)*.بيروت: المؤسسةالعربية للدراسات و النشر.
۲۵. قطوس، بسام. (۲۰۰۱م). *سيمياء العنوان*. (ط ۱). إربد: مكتبة كتانة.
۲۶. كامل شعلان، سناء.(۲۰۰۶م). الرحلة الأسطورية فی رواية رحلة ابن فطومه لنجيب محفوظ. *مجلة عمان*. الأردن. العدد۱۳۵. أيلول۱۷.www.main.omandaily.com
۲۷. كنجيان خناری، علی و محبوبه بادرستانی.(۱۳۸۸هـ ش). اللص و الكلاب: دراسة فی الشكل و المضمون. *التراث الأدبی*. السنة الأولی، العدد۴. صص۱۱۳-۱۲۲.
۲۸. كورتيس؛ جوزيف.(۲۰۰۷م). *مدخل الی السيميائية السردية و الخطابية*. ترجمة: جمال حضری. الجزائر: منشورات الإختلاف، الدارالعربية للعلوم.
۲۹. محفوظ، نجيب.(۲۰۰۷م). *الأعمال الكاملة*. المجلد الخامس. القاهرة:مكتبة مصر.
۳۰. مرتاض، عبدالملک.(۱۹۹۸م). *فی نظرية الرواية(بحث فی تقنيات السرد)*. الكويت: عالم المعرفة.
۳۱. مرينی، محمد (۲۰۰۶)، «نجيب محفوظ فی النقد الحديث (النقد الاجتماعی)»، مجله النقد الادب فصول، العدد ۶۹- صيف- خريف
۳۲. الملاح، إيهاب.(۲۰۱۱م). استلهام التراث السردی فی رحلة ابن فطومة. *مجلة عمان*. الأردن. العدد۱۷۰. ديسمبر۲۷.www.main.omandaily.com
۳۳. موسی، خليل.(۲۰۰۰م). *قراءات فی الشعر العربی الحديث و المعاصر*. منشورات موقع

اتحاد الكتّاب العرب على شبكه الإنترنت.www.awu-dam.com
۳۴. نجم، محمديوسف.(۱۹۶۵م). *فن القصة*. بيروت: دارالثقافة.
۳۵. هليل، جلال أبوزيد.(۲۰۰۶م). «فلسفة الشكل فی«العائش فی الحقيقة»». *مجلة الفصول*. عدد خاص لنجيب محفوظ، المجلد۱۲، الرقم۱،صص۱۳۶-۱۴۸.

ب) الفارسية

۳۶. ضميران، محمد.(۱۳۸۲هـ ش). *درآمدی بر نشانه شناسی هنر*. تهران: نشر قصه.
۳۷. ميرزايی، فرامرز و مظفراكبری مفاخر.(۱۳۸۸هـ ش). تحليل مكتب ادبی داستان«سه گانه» نجيب محفوظ. *مجله انجمن ايرانی زبان و ادبيات عربی*. شماره۱۱.صص۱۱۵-۱۳۵.
۳۸. ----،----و----------.(۱۳۸۷هـ ش).«بحران فكری و روحی قهرمان در رمان الثلاثية ی نجيب محفوظ». *پژوهشنامه ادب غنايی دانشگاه سيستان و بلوچستان*. سال ششم. شماره ۱۱. پاييز و زمستان۱۳۸۷.صص۱۶۴-۱۵۳).